طُقوس للعَودة

{قصص قصيرة}



السيد إبراهيم أحمد

ناشري

© حقوق النشر الإلكتروني محفوظة لدار ناشري للنشر الإلكتروني.
www.Nashiri.Net

© حقوق الملكية الفكرية محفوظة للكاتب.
نشر إلكترونيا في ربيع الأول ، 1435/نوفمبر، 2014

يمنع منعا باتًا نقل أية مادة من المواد المنشورة في ناشري دون إذن كتابي من الموقع.جميع الكتابات المنشورة في موقع دار ناشري للنشر الإلكتروني تمثل رأي كاتبيها، ولا تتحمل دار ناشري أية مسؤولية قانونية أو أدبية عن محتواها.

الإخراج الفني: ليـــلى الألمعـــــي
تصميم الغلاف: أسماء الصياح
التدقيق اللغوي: هـــبة العربـــي

نبذة عن الكتاب

مجموعة قصصية تتناول الجانب الاجتماعي، والسياسي المحلي بنظرة كونية، من خلال معالجة لا تتسم بالتعقيد ولا التقعير، وإنما بالعمق، تتجاوز الشخوص للولوج إلى البنية الفكرية للأحداث.. فازت إحداها بجائزة هيئة الإذاعة البريطانية بالتعاون مع مجلة العربي، وتناولت أخرى طقس شعبي لم تتطرق له القصة القصيرة من قبل.

محتـــويات الكتـــاب

نبذة عن الكتاب 2
إلى قتلتي 4
أشواك ظلمكم، أثمرت دعوات، 4
يرعاها انتقـــام ربـــــى. 4
سيد 4
عندما تكلمت المرأة 5
لحظة دفء 8
صداقة 11
عم جابر أفندي 13
الجبـــل 17
الاقتحام الخاطيء 20
سلطان عرش الدخان 22
عندما تتكلم المرأة 25
*القطار 28
طقوس للعودة 30
رجل وامرأة، وموظف (قصتان) 36
لحظة انسحاب 40
رغم أنفه 45
وِزْرَ الأُخْرَى 48
مرسي عدلي السيسي رمضان 51
السيد إبراهيم أحمد 54

إلى قتلتي

أشواك ظلمكم، أثمرت دعوات،

يرعاها انتقـــام ربـــــى.

سيد

عندما تكلمت المرأة

ما هذا الذى دهى والده ليفعل فيه مثل هذه الفعلة التي مازال مذهولًا من وقعها؟! من الذى أشار عليه حتى يربط بين ميراثه وشرط الزواج بزينب ابنة عمه وخالته؟!

من الذى أعاد قصص الأفلام القديمة لتحتل واقعه الجديد، لم يرها ولم يسمع عنها غير أنها جميلة وذكية، وتعيش في بلدتهم ومسقط رأسهم بالوجه البحري الذي لم يزره منذ عاد من البعثة الدراسية ببريطانيا، ثم الأدهى والأمر أنها بكماء فكيف سيتعامل معها وهو حتى لم يتعلم اشارات البكم؟!

يحاول جاهدًا الفكاك من هذا الشرط القاسي، يحادث محاميه فيجزم باللا حل، يستعطف والدته فتعرض عنه، يرفع محموله في نداء عاجل للشلة طلبًا للنصيحة والمشورة.

تجتمع الشلة في شقته التي أعدها للسهر والمرح مع الأصدقاء الذين تزوج بعضهم، والبعض الآخر في طريقه للزواج، والباقون ممتنعون إلى حين.

جلس كالسلطان وهم حوله كالوزراء والكل يدلى بدلوه؛ فمن قائل:

ـــ فلتذهب هذه الزيجة للجحيم ومعها الثروة فالأهم هو الحرية. ومن قائل:

ـــ فلتتزوجها ثم بعد حين تطلقها.

أما رأي الذين تزوجوا فقد كان أكثر واقعية؛ إذ مال عليه أحدهم ناصحًا:

ـــ يارجل أنت محظوظ، لقد هبطت عليك ثروة فوقها مكافأة.

يستنكر ويستنكرون معه: مكافأة!

يهدىء من روعهم بعد أن روعوه:

ـــ نعم أيها الأوباش مكافأة لا يدري قدرها إلا من يعاني من ثرثرة الزوجات، والقيل والقال، والمشاكل مع الأهل وأحيانًا الجيران، وحكايات العمل إذا كانت موظفة.

في المساء تسللت أمه إلى غرفته تخبره بغضبها منه لاتهامه والده بالقسوة وهو الذي عاش رحيمًا به:

ـــ غير أن والدك في أخريات أيامه لم يعجبه سلوكك فاشترط هذا الشرط الذي أشرته عليه.

تمت الزيجة في جو هادىء مصطنع؛ فقد اصطنع الرضا والتسليم بالأمر غير أن الذي أدهشه وفاجأه بحق فهو جمال وأناقة العروس وهذا الذي لم يكن يتوقعه،أما الذي يسعده أكثر أن حياته ستمضي كما هيَّ كما كانت قبل الزواج، فبحسب خطته سيعطي زوجته قدرًا يسيرًا من وقته ثم يتركها مع خالتها في حديثهن الصامت واشاراتهن البلهاء.

عاش قدرًا رائعًا من السنوات أنجب خلالها ـــ ويا للعجب ـــ بنتًا وولدًا يتكلمان بطلاقة ويتفاهمان مع أمهما أيضًا بمهارة بل وينقلان إليه ماتريد أو ترفض، وهو ماضٍ فيما رسم لحياته غير عابيء بحديث أمه أمامها عن نزواته وسهراته، ولا يهمه أن يحادث من يحادثه على الهاتف، فالزوجة صابرة صامتة صامدة.

أوشك رمضان المعظم على الانقضاء وأبلغه ابنه بدنو موعد زفاف خالهم في ثانى أيام عيد الفطر المبارك وعليهم السفر جميعًا لحضوره بالبلدة، تعلل بالعمل ونصحهم بأن يسافروا ويصطحبوا الجدة معهم.

أوصلهم حيث الوسيلة الآمنة من وجهة نظره "القطار"، سلم عليهم بحرارة، غير أنها أمسكت يده جيدًا ونظرت إليه طويلاً ثم بكت فهدأها وأفهمها أنه سينتظرها على أحر من الجمر، لم يكد القطار يعلن عن وصوله إلى بلدتها حتى فارق القضبان واصطدم بالمحطة ولم يوقفه سوى ارتطامه ببعض السيارات والأكشاك، هبت المرأة التي تشاهد الموقف لتحتضن أولادها وهى تصرخ: أولادى، أولادى.

سافر الزوج سريعًا إلى البلدة للاطمئنان عليهم بعد معرفته بالخبر في التلفاز، ليجد الأولاد ووالدته فى أحسن حال وكذلك الزوجة التي تفاجئه بالحديث معه

وهو يسمعها في شبه غيبوبة وذهول وحلم بين المصدق والمكذب، والمسرور والمتألم، فسحبته إلى غرفتها لتسرد عليه ما حدث منه خلال السنوات الماضيات.

حزموا الحقائب وهيَّ تتحدث، ركبوا السيارة وغادروا البلدة وعادوا إلى القاهرة وهيَّ تتحدث، ناموا وأصبحوا وهيَّ تتحدث، تذكره بمخازيه وسهراته ومكالماته وعوداته الصباحية.

لم يجد بدًا من الوصول إلى هيئة السكك الحديدية يهددهم بأنه سيرفع دعوى عليهم يطالبهم فيها بالتعويض أو يعيدوا له زوجته كما كانت بكماء، أخبروه بأن هذا يحتاج لحادثة أخرى وهذا في علم الغيب، وأنهم هم الذين سيطالبونه بدفع مكافأةً لهم فلولا قطارهم واصطدامه ما تكلمت زوجته. أما أصحابه فما بين شامتٍ ومهنيء، فأقسم قسمًا مغلظًا ليغلقنَّ الشقة للأبد، وكان فى نفسه يعلم أنه مجبر على ذلك لا بطل.

انتصف النهار وعليه أن يعود في موعده وإلا فلن تدعه لشأنه، غير أنه أدرك أن عليه أيضًا أن يلوذ بالصمت، فيصبح كالأبكم باختياره، لأنه تقريبًا يسمع صوتها وهو يصعد السلم خارجًا من الشقة؛ إذ مازالت تحاكم أولادها وخالتها والخدم، كمن تمرِن نفسها في انتظاره ليأخذ دوره.

لحظة دفء

خلت الشوارع الأسفلتية في قلب المدينة من المارة، برودة منتصف ليل ديسمبر تشيع في الأشياء، السيارات تمرق كالسهام يغريها فراغ الأماكن وغياب رجال المرور، أخذتْ تمشي على عجلةٍ من أمرها بينما كانت تتدثر بمعطف أسود كثيف الفراء، بيدها حقيبة صغيرة، أصداء إطارات العربات في الشوارع الجانبية تصب في أذنيها. البرودة المتسلقة إلى ساقيها العاريتين أحسستها بخطأ تسرعها في قرارها بمغادرة منزلها.

سيارة تنسل من جانبها، تعتلي الرصيف، أخذتْ تسير محتمية بالمحلات المغلقة، برودة منزلها ساعدتها على مغادرة كل شيء، رنين صوته الناعم مازال طنينه بأذنيها:

ـــ لكِ ما تريدين، افعلي ما شئتِ.

رفعت يمناها في ثورة كأنه أمامها، صوت السيارات ذكرها بالشارع، تهندم غطاء شعرها.

ـــ أريده غير هذا، حتى الآن لم يغزُني، بينما صار هو مُبردًا كبيرًا، كل شيء فيه بارد، بارد.

هكذا كانت تصرخ في وجه محاولات أمها الفاشلة لتجميله لها وبسعادة ورفاهية ما تعيش فيه، الأنوار الباهرة حينًا والخافتة تترك أثرها الضعيف على الأرصفة وصفحات الشوارع، خطواتها تنتقل بسرعة من عامود إنارة إلى آخر، رفعت رأسها تستطلع نهاية الشارع، مايزال الطريق طويلاً بعض الشيء حتى تصل إلى الميدان، نسمة هواء باردة تمر على وجهها وساقيها أشعرتها بحاجتها الأكيدة إلى الدفء الذي تشتاقه وتحلم به في مثل برد هذا الليل القارس، لكنه ليس ساخنًا. هكذا تفوهت رغمًا عنها بصوت شبه مسموعٍ لها، تلفتت حولها في

ذهول، هزت رأسها مؤكدةً لنفسها بأن أحدًا لم يسمعها، نزلت من فوق الرصيف، ها قد لاحت أضواء الميدان لها بينما الشارع يعلن عن نهايته، كادت تتنفس الصعداء لولا أن شعورًا بالرعب تملكها فجأة. تراه واقفًا في قلب الميدان تمامًا، تجمدت أوصالها، مازال طربوشه يمتطي صهوة رأسه، ومايزال منتصبًا في شموخ، يسراه بجانبه واليمنى تشير سبابتها إلى الأرض في لهجةٍ آمرة حازمة، يتوسط وجهه عينان ناريتان تحتهما أنف مدبب أشم، تقدمت نحوه خطوات وقدمها اليمنى تصعد بخوف الرصيف الدائري للحديقة المحيطة به، تواصل التقدم بوجل نحو القاعدة التي تحمله، فاجأتها سبابته الآمرة التي سيطرت على بصرها، فجثت على ركبتيها مرتعدة، تتأمل شاربه الغزير الذى يحتل تقريبًا نصف فمه الجميل، غزاها بصوته الجهوري ساخطًا، بكت، تلذذتْ ببكائها، صرخ في جوانبها صرخةً رتبت كل الأشياء بداخلها.

اللمبات الفلورسنتية الصفراء المتوهجة تصب أضوائها العمودية فوق حلته الخضراء الداكنة الجرانيتية، تنسكب على جسدها، تشعرها بدفءٍ طالما تاقت لمثله منذ زمنٍ بعيد، تتحسس حجرًا صلدًا مغروسًا في أرض الحديقة شبه المبتل، تتفرس بركن عينيها تجاعيد وجهه، تتلذذ بقسوته، أحست بلطمة عنيفة حينما احتوت نظراتها يده القوية ذات العروق النافرة، راحت تبكى بكاءً مُرًا، استعذبت جبروته وضعفها، وإعراضه وإلحاحها. بدرت منها أنة استعطاف، لكنه لم يأبه لها، برودة العشب الأخضر الذي غافلها وسرى في ركبتيها، أعاد إلى مسامعها وقع خطوات المارة البعيدة وهدير السيارات التي لا تمنح الميدان ولا صاحبه وقتًا للراحة والهدوء، قامت منهكة القوى، أعطته ظهرها، لم تنظر إليه؛ تخشى من مجرد النظر إليه، لا تقوى عليه، غير أنها استجمعت كل شجاعتها وقوتها وأدارت رأسها ونظرت إليه دون أن تحرك كل جسمها.

ما تزال سبابته الآمرة تشير إليها. تبتعد، غادرت الحديقة، هبطت إلى الشارع البارد في خطواتٍ متعبةٍ كسولة، سارت مطرقة الرأس وصوته مازال يملاء جنباتها، راحت تعدو مسرعةً وصوت كعبها المعدني يتردد صداه بين فراغات

الأبنية الشاهقة، بينما فرحةٌ غامرة طاغية مجنونة تسود جسدها وقلبها بعد أن ظفرت بلحظة دفء طالما تاقت إليها وتمنتها منذ زمنٍ بعيـــــــــــــد.

صداقة

وقف بزيه الأبيض في منتصف الميدان وصافرته التي تحرك السيارات والمارة في أحد الاتجاهات الأربعة بمجرد أن تلامس شفتيه أو توقف هذا الانهمار في جهة أخرى ماتزال بيمينه، كانت وخادمتها التي تتوكأ عليها كثيرًا ما تمر عابرةً الميدان بعد أن تغادر مسكنها في الطرف الشرقي من الميدان حيث مسجدها الأثير لديها في الطرف الغربي منه الذي بناه حبيب وشريك العمر الذي رحل مودعًا دنياها، فصارت وحيدة بعدما رحل الأولاد بعده أيضًا إلى حيث البلاد الجليدية البعيدة التي جمَّدت فيهم المشاعر، فأصبحوا لا يأتونها إلا لماما كلما كانت لهم مصلحة في ذلك أو يهاتفونها في المناسبات القليلة خلال العام طلبًا للرضا وعملاً بالأصول، وعندما لا تذهب إلى المسجد الذي يجمعها بصويحباتها وأترابها من قبل صلاة الظهر وحتى صلاة العصر لتجتر معهنَّ الأصداء الباقية من حكايا الزمن الماضي الجميل والمستحيل، أما الصلاة فهيَّ تعلم أنها ليس عليها حضور جماعة وصلاتها فى حجرة بيتها أفضل، كما أنها ما حضرت للاستزادة من الثواب والحسنات وارتفاع الدرجات.

كان الرجل كما كانت صافرته يعلم عن تلك المرأة وعن توقيت رحلتها شبه اليومية الكثير فهو معهم منذ زمن يخدم في هذا الميدان، فما يكاد يلمحها قادمة أو واقفة تنتظر إغلاق الإشارة بعينيها الذابلتين وجسدها الواهن حتى سرعان ماتنتقل صافرته رغمًا عنه إلى شفتيه فيطلق بروجي التوقف للجميع حتى تمضي تسحبها خادمتها كطفلٍ وديع مطيع إلى ساحة المسجد ليكون هذا إيذانًا منها بعودة الحركة للميدان.

اقترب وقت الظهيرة في ذلك اليوم الشاتي لكنها لم تحضر، فغلب عليه الظن أنها اليوم في أجازة من المسجد وصويحباتها كما كانت تفعل أحيانًا.

المشهد يتكرر فى اليوم التالى غير أن الذى زاد عليه حنينه لأن يراها فقد كان يحس بأنه على قائمة دعواتها بالستر والصحة والعافية جزاء ما يقوم به من أجلها، وكانت هذه أجمل عطية ومنحة له منها، كما زاد على ذلك مرور أناس يحملون صندوقًا خشبيًا من الطرف الشرقي للميدان وجهتهم المسجد قبيل صلاة الظهر، وبدون تردد واحترامًا للموقف يطلق صافرته لتمر الجنازة في أمانٍ وهدوء، لم يتهيأ له أن يسأل عن صاحب الجنازة حتى لمح ببصره الخادمة برفقة بعض النسوة ومناديلهن وسوادهنٍ حتى بادر بالاقتراب وجذبها رغمًا عنه بعيدًا عنهن، وهو يصيح مشيراً للصندوق فى ذهول:

ـــ الحاجة؟

وقبل أن يكمل كانت اجابتها طأطأةً بالرأس عدة مرات مع الدمع الثخين منها ومنه.

تنتهي صلاة الظهر وصوت الإمام يدوي حزينًا مجلجلاً يزلزل جنبات الميدان الهادىء الحزين بالتكبيرة الأولى من صلاة الجنازة، أدخل صافرته في جيبه ووقف كأنه يصلي معهم، خرج المشيعون يتقدمهم الصندوق، أطلق الرجل بروجي التوقف لكل اتجاهات الميدان، عبرت العجوز عبورها الأخير بينما كانت صافرته وهو يطلقها لينطلق المرور بالميدان قد احتبس صفيرها من البكاء، وفى اليوم التالي كانت صافرته قبيل الظهر تطلق إشارة التوقف واهنةً حزينة كأنها تستعيد ذكرى الصداقة الجميلة المستحيلة.

عم جابر أفندي

لا تخضع الأحداث في قريتنا طبقًا لقانون الفهلوة أو التخمين، فالبداهة هيَّ النمط السائد؛ فعند مرور امرأة تحمل صينية فوق رأسها فمحطة وصولها هو زوجها الذي يرعى الأرض، وعندما تنادي أخرى ابنها ليلقي بعدد من أعواد الحطب من فوق سطح المنزل، فهذا لأنها ستشعل النار في الفرن الطيني لكي تخبز، وعندما تمر البنات يحملن جرارهن فوق رؤوسهن فمن المؤكد أن وجهتهنَّ الترعة، وغذا دوى صوت دمدمة متتالية ترج الأرض، فهذا صوت القطار الذي يشق الحقول كثعبان يعدو مسرعًا مخافة أن يلحقه من يطارده، والزغاريد إعلان الفرحة: بزواج، أو أن بهيمة لأحدهم قد ولدت، والصراخ إعلان أيضًا ولكن بوفاة أحدهم، أو أن بهيمة ماتت وهيَّ الكارثة الأكبر، لايتبقى للفهلوة إلا مجالاً ضيقًا من التخمين والسؤال عن من الذي مات؟ أو من الذي سيتزوج؟ وسيتزوج من؟

ومن البداهة التي لا تكاد تخطيء أنه إذا تولى العِشاء وأضيئت مندرة بيتنا ورُشَّ حولها الماء، فهذا إيذانٌ بقدوم الرجال الضخام الفخام أصحاب أبي واحدًا تلو الآخر سراعًا في انتظار جابر أفندي، وهو موظف لا أدري شهادته العلمية، غير أننا نسمع حكايات مختلطة عن رسوبه أكثر من مرة في مدارس البندر، أي أنه لم يسلك التعليم الديني الذي نعرفه، بيد أنه ينقل حكايات المدينة والموظفين الكبار، وعلاقاته بعلية القوم، ومعرفته بالأسرار العليا، والمكالمات الهاتفية والمكاتيب العاجلة التي ترد من العاصمة للحكمدار، وأخبار الحوادث بالبلاد المتناثرة حولنا، وآخر من قبض عليه من مشاهير قطاع الطرق واللصوص.

لا شك أن زيه الأفرنكي، وحفاظه على أناقة مظهره، وحلاقة لحيته، ووجهه المبتسم دومًا قد أضاف هالة لم نعهدها في غيره، والأدهى من هذا كله، قراءته للجرائد، وتلك التي أجيدها، ولكن أحدًا من أصحاب أبي يناديني؛ ذلك أنهم نادوني مرة ولم يعجبهم أن أكر الأخبار كرًا كجلمود صخرٍ حطه السيل من علٍ، فقد كنت أرى أن معيار السرعة هو الجودة والإتقان، وعندما كانوا يستوقفونني للسؤال عن شخص أو حدث أجيب إجاباتٍ مختصرة وجافة تزيدهم إرباكًا وجهالة فيسكتون على مضض، فزهدوا في تكرارها.

ترقص الجريدة في يديّ عم جابر بينما عيون الرجال تتابع فر الورق، وكأن الأخبار تُملى عليه ساخنة لتوها، فما يكاد يقرأ سطرين حتى تمر نظراته على وجوههم المشدودة إليه ليكمل لهم باقي الأحداث من عنده، فإذا تكلم عن زواج فنانة، وصف وفتن، وإذا تحدث عن جلالة الملك، بدا وكأنه سيحل وحاشيته ضيوفًا علينا، فقد كان عم جابر أفندي يقلد هز أكتافه وطريقة كلامه عندما رأى جلالته ذات مرة في القاهرة العامرة، وإذا مر على الكاريكاتير يصفه لهم ويقلد الشخصيات المرسومة بالصوت والصورة.

تتعالى أصوات الرجال الضاحكة المنسجمة تجلجل في المكان بينما صواني الشاي والكعك تخترق الصفوف، والأيدي تمتد إليها في تلقائية، وأنا أشاهد الموقف من بعيد

فيلمحني أبي الذي أشار إليَّ بالصعود إلى فوق أي إلى النوم، فصعدتُ على مضض، تحدثت مع نفسي ـ كعادتي ـ قبل أن يسرقني النوم إلى مدن الأحلام: لقد حاولت أكثر من

مرة أن أكسر بعض العادات ولم أفلح، وبدأت بهذا مع أمي التي تحبني كثيرًا، ذلك حين

دخلت عليها فرحًا أزف إليها ما قاله لنا مدرس الدين من أن النواح على الميت حرام، ولبس الأسود حرام، وزيارة القبور وعمل الأربعين والذكرى السنوية كل هذا حرام، نهرتني

ولكزتني في صدري، وأخرجتني شبه مطرود من أمام ضيفاتها من النسوة المتشحات بالسواد، وهيَّ تصرخ في وجهي غاضبة:

ـــ أمواتنا ما ماتوا، الموت عندنا حياة، ولبس الأسود جسر بيننا وبينهم، والذهاب للقبور زيارة ... و ... و....

وقفت أمام صورة جدي وقرأت له الفاتحة، ودعوت له بصوتٍ مسموع لها، فقبلتني

وأخرجت من كيس نقودها قطعة فضية، ومضيت.

اعتدتُ أن أسير في طريق عودتي من مدرستي القريبة من بلدتنا بجوار الحقول القريبة من قضبان السكة الحديد؛ فربما وقعت عينايَّ على ورقة من جريدة ألقاها أحد الركاب من نافذة القطار، فأسطو عليها كأنها غنيمة وأفرها بل واحتفظ بها، وكانت بعض الورقات تحوي صورًا لفتيات جميلات، وبلغات لا أعلمها، وكم كانت فرحتي حين أمسكت بصفحتين جديدتين طارتا من قطار مرق بجانبي وصاحبها يشير عليَّ ويضحك، فهو يعلم أنني لن ألحق به لأردها له، وبهذا فقد صارت من حقي، تصفحتها فإذا كلها كلام بالعربية، وقليل من الصور، وللأسف صور رجال.

ـــ ماهذا؟ الحياة الشخصية لمديري المديريات الجدد، هذا ما كان يحكيه العم جابر أول أمس عن مدير مديريتنا القادم، ولكن ما هذا؟! ليس فيه شيء صحيح مما حكاه، استشرت صديقًا لي، وكان مثلي ممن يكرهون جابر أفندي لأنه خلب ألباب الرجال وحرمنا من نفحاتهم النقدية عندما كنا نقرأ لهم الجريدة، فأشار عليَّ بالهجوم.

انتظرت آذان العشاء بشوق، ومع دخول صواني الشاي والكعك، وقهقهات القوم دخلت

متسللاً حتى وقفت أمام عم جابر أفندي وخاطبته بصوتٍ عالٍ محاولاً لفت أنظار الجالسين لما سأقول، بينما تربص صاحبي بعيدًا ليسمع:

ـــ ألم تقل أن مدير المديرية الجديد والده حكمدار شديد قاسي مع المجرمين؟

ـــ نعم يا بني.

ـــ أبدًا يا عم جابر، فقد كان أبوه تاجرًا.

تدارك أبي الموقف فنهرني، عندما وجد الرجل ينظر إليَّ ذاهلاً، وبدأت الهمهمات والغمغمات تدور على الشفاه كدوي النحل:

ـــ وأنت من أين أتيت بهذه الخزعبلات يا فالح؟

أشرت إلي الجريدة، التي التقطها عم جابر الذي ترك كوب الشاي، وقام لينسل من المجلس دون سلام، لينسل بعده عقد الضيوف تباعًا، وقد سبقهم أبي مهرولاً للحاق بجابر أفندي لإثناءه والعودة به مرة أخرى:

ـــ لا تصدق يا جابر أفندي كلام هذا الولد الأخرق، هذا كلام جرائد.

ولكن المحاولة لم تفلح، لنعيش بعدها أنا وأبي في غربة مخيفة بعدما أغلق عليه غرفته، بينما أمي حدجتني بنظرة الابن العاق.

ارتفع آذان العشاء الذي كنت أتمنى أن لا يأتي، فصلى أبي في غرفته، ثم جلس في المندرة وحيدًا، بينما تعالت الضحكات من مندرة الحاج حسين غريمُ أبي، وكان انتقال عم جابر أفندي لداره شرفٌ كبير وأبهة طالما تاق إليها.

فوجيء عم جابر بوجودي أمامه وأنا أقبل رأسه ويده أمام أصحاب أبي، معتذرًا عن عدم فهمي واختلاط الأمر عليَّ، ثم نظرت إليهم باكيًا بكاءً هستيريًا:

ـــ أبي مريض جدًا وإن لم تدركوه فقد يموت.

عادت الضحكات لمندرتنا، ورضيَ عني أصحاب أبي ونفحوني القروش، وامتدحني عم جابر أفندي وأعلن أمامهم أني خليفته وشبيهه، وانزويت إلى غرفتي، ليدركني أبي:

ـــ أنا أعرف يا ولدي معنى حضور عمك جابر أفندي، وماذا يعنيه غيابه؟ وأنت تعلم.

ضحكت، فقبل رأسي، ودعا لي، ثم نفحني جنيهًا ذهبيًا إعجابًا ضمنيًا منه بحيلتي لعودة الرجال إلى دارنا، فقبلت يده ومضيت إلى دار صديقي القريبة، لنبتهج بولادة بقرة لهم، ونرقص ونقفز مع من يرقصون على الطبل والمزمار.

الجبــل

انطلقت الزغاريد المدوية من البيت الشاهق العتيق الذي يطل على البيوت الأقزام من حوله، الأقدام تترك آثارها في أرض الحارة المبتلة من ذلك الحي الغائر عند أطراف البلدة، الكراسي رصت صفين، والصبية الصغار يصعدونها حينًا ويمرون تحتها حينًا آخر.

يطل من البلكونات الخشبية البالية مكبر صوت يذيع أغاني فلكلورية فجة للبنات المتحلقات الملتحفات بأزيائهن الصارخة الألوان والتفاصيل في الغرفة الخانقة بينما غرفات الشقة الباقية بالدور الأرضي يسودها الهرج من سير النسوة البدينات البطيئات كعربات الترام القديمة.

مقعدان كبيران مذهبان يتوسطان الغرفة الواسعة في مقابلهما مقاعد متراصة بانتظام، تجلس هيَّ غارقة في ثوبها الأبيض الفضفاض وفي مقعدها وهيَّ تراقب مدخل الشقة ليأتي فارسها ويملأ مكانه على المقعد الكبير بجوارها، تقترب منها صاحبةً لها هامسة، تُظهر عيونهما بذاءة الحديث وميوعة ضحكاتهما.

الفرقة بطبلها وزمرها وزيها البلدى يعلنون قدومه، تنطلق الزغاريد عبر المكبر لتملأ سماء الحارة، يقبله الرجال ويشدون على يده، ينسل مجتازًا الغرف سريعًا وصولاً إلى مقعده، ينظر إليها بفرحةٍ مكبوتة وهو يتحسس جلبابه، مد يده ليمسك يدها في عنف وهو يضحك مزهوًا، يتقدم فم فوقه شارب طويل نحوه هامسًا في ثقة:

ـــ لقد أحسنت الاختيار، هيَّ الوحيدة التي لم تذهب إليه.

يوميء إليه طالبًا المزيد، فيغري هذا صاحب الشارب بأن يجر كرسيًا ويجلس بجواره مقتربًا أكثر، وبهمسٍ وبحرصٍ أكثر:

ـــ ما من واحدة إلا وذهبت خلف الجبل، وعدهن كلهن، ودائمًا ما يخلف، إلا هيَّ لم تصعد الجبل.

نظر العريس للفرقة، فدقوا دقات إعلان بداية موكب الزفاف، أفسح الرجال الطريق، وأبعدوا الكراسي، نظر إليها في حبٍ وشوق.
خرج الموكب خارج البيت، مازالت تتأبط ذراعه الذي يحكمه حول ذراعها، صعدا البيت المقابل حيث شقة الزوجية بالطابق الثاني، أحاطت بهما الزغاريد وجلابيب الرجال وأجساد النساء، وتناثر حولهما الصبية الصغار، تسبقهما الشموع فوق السلم الخشبي الذي يصعده الجميع صعودًا وئيدًا، دخل الشقة، يغلق الباب يتجها نحو غرفتهما، تفاجئه أربع سيدات ينتظرانهما فيها، يصرفهن جميعًا بشبه ابتسامة متحجرة.
أغلق الباب بالمزلاج، تقتحم الزغاريد المجنونة الباب تصك أذنيهما، تقوقعت في أحد الأركان فوق السرير، ينظر اليها شرهًا، الغرفة تتوسطها منضدة خشبية مستديرة فوقها أطباق كثيرة مغطاة تعلن عن وجودها بالتوابل الشهية الحارقة الفواحة، يخلع جلبابه في ثقة، طلاء الغرفة الأحمر الفاقع يلقي بظلاله على العيون وعلى ملعقتين وشوكتين وسكين ومقعدين تحتضنهما المنضدة، يتقدم نحوها، ينتزع ثوبها انتزاعًا، يتصبب عرقًا، تنهمر أصوات الزغاريد والدفوف والغناء من حناجر المرابضين أمام الشقة، يرميها بغضبٍ بعيدًا عنه، يصفعها وهو يهم بالوقوف ليرمقها بنظرات نارية حادة وجادة، تبكي بينما هو متسمر في مكانه وهيَّ تنزل من فوق السرير خاضعةً متوسلة مستعطفة عند قدميه تقبلهما وتغسلهما بدموعها المدرارة، يرفعها من كتفيها صارخًا فيها:
ـــ هل زارك أحدهم قبلي؟ هل ذهبتِ خلف الجبل معهن؟
تومىء بالايجاب، ونور الغرفة الأحمر يكسو وجهها المبتل، يتقدم نحو المائدة الخشبية. ينقض على السكين، تصرخ صرخة مدوية، تتعالى الزغاريد في الخارج، يرتدي جلبابه، يمسك بقطع القماش الأبيض يسقيها من دمها، يفتح باب شقته ليلقي إليهن دليل البراءة على نصاعة الشرف، يتلقفنها منه في شوق، خرجوا إلى الحارة، يخرج معهن تاركًا باب الشقة مفتوحًا، مازلن يزغردن ويغنين في

رقصات دائرية بينما أيديهن تعلو بقطع القماش المخضبة باللون الأحمر وهن يصحن على الجيران الذين يطلون من البلكونات والنوافذ:

ـــ شرف الطاهرة، شرف الشريفة، شرف الـــ.....

سار وهو يتمتم في غيظ دون أن ينتبه له أحد، فرأسه لم تفارق الأرض.

أخيرًا تنبه بعضهم لمشيته الكسيرة الذليلة على غير عادته، ينظرون إليه في ذهول، يتركونه نحو الشقة يهرولون، تمر لحظات حتى ترامى إلي مسامعه أصوات الصراخ والبكاء والعويل، بينما تلاشت الزغاريد وخفت غناء الشرف، كان على أطراف الحارة، يسير قاصدًا الجبل وهو يتمتم في انحناء: شرف الـــ.....

الاقتحام الخاطيء

إذا ضاقت بكم الصدور فعليكم بزيارة القبور، نصيحة كانت أمه ترددها دائمًا لتجد الذريعة المناسبة لزيارة قبر والدها خوفًا من اعتراضات كانت تواجهها، لم يكن هناك بد فقد خرج لتوه من معركة خطبة فاشلة انتهت كجنينٍ خرج قبل أن تحين لحظة ميلاده مثلما تنتهي معظم زيجات أيامنا هذه المنزوعة البركة كاللبن منزوع القشدة.

لم يكن قرارًا سهلاً حتى تطيعه نفسه لينتقل إلى غرب المدينة الهاديء وحيدًا حيث يرقد السابقون الراحلون، لكنه أيضًا في قرارة نفسه قد ضاق بالزحام وثرثرة الأحياء وعائلته في اجترار أحداث تلك الخطبة، وخاصةً تقريع والده له على رعونته وطيشه وتسرعه كلما رآه، مما كلفهم خسارةً كبيرة، حدَّثّ نفسه وشجعها باتخاذ قرار الرحيل إلى الصامتين، ليمارس معهم صمته بعد أن كثر كلامه في توضيح وجهة نظره وكثرة صمت من يشرح لهم تعبيرًا عن غضبهم منه.

الظلال وارفة والهدوء يعم الأحياء والأموات، والقبور متراصة بيضاء كأنها فى عرضٍ ختامي للحياة، الصباح مشمس وهاديء؛ لأن اليوم ليس عطلة، والنظافة يلاحظها حتى الكفيف، نعم، هذه ولاشك مقابر الشهداء، هكذا حدث نفسه و طمأنها، راح يمشى أمام المقابر كأنه قائد عسكري يستعرض قواته، تقع عيناه على أسماء مكتوبة بالأبيض على لافتات خشبية سوداء وتحتها تاريخ الوفاة، وقف متسائلاً: من الذى قتلهم فهذا أعرفه، فما الذى قتلهم؟! ربما قتل هذا رصاصة طائشة، أو ربما انقضت على هؤلاء دبابة أو أمطرتهم الطائرات بوابل من القذائف، ولمَ لا يكون نتيجة لاقتحامٍ جريء، أو ربما اقتحام خاطيء.

لم يخرجه من تأملاته المتسائلة غير وجود طفلة بملابسها البيضاء في هذا المكان وحدها، يقترب منها، تنظر إليه في براءة وهي تلعب ببعض الأحجار الصغيرة أمام أحد القبور لتفاجئه قائلة:

ـــ باباك موجود هنا وأتيت لزيارته؟

لم يدر ما يقول لها غير أنه أومأ لها بالإيجاب مشيرًا إلى أحد القبور التي أمامه، فأشارت هي الأخرى إلى القبر الذي أمامها:

ـــ وهذا قبر أبي.

لم يكد يسألها مع من قدمت إلى هذا المكان، حتى أشارت له على امرأة تتشح بملابس السواد قابعة تحت مظلة مُعدة عند مدخل المقابر بحيث يتاح للجالس أن تمسح عينيه جميع القبور بوضوح، وبدون أن يسأل هذه المرة أجابته الصغيرة ببراءة الأطفال المتناهية :

ـــ هذه مامتى.

كانت المرأة الحزينة من بعيد تتابع الموقف فإذا بها تهب واقفة تستنهض طفلتها متعللةً بأنه موعد الرحيل، يمسك بيد الطفلة يلاعبها كأنها أحد أقاربه ماضيًا بين القبور نحو أمها التي لم تعره أدنى اهتمام ولم ترد حتى تحيته، في حين وقف هنيهة يتفرس ملامح وجهها الهاديء الجميل الأبيض المشرب بحمرة الحزن.

مضت تلملم حاجتها وحاجة طفلتها في حقيبة معها، حاول أن يتكلم، لكن نظرة منه تجاه الأسود الراقدة الرابضة أحسسته بأنهم قد يقومون بافتراسه غيرةٍ منهم على زوجة صاحبهم، فأحس بأنه جرذ يلهو في غياب صاحب البيت، أحس بالحقارة فانسحب بهدوء، انصرف خارج مدار المكان، ووقف ينتظر خروجها حتى يعتذر لها، ولكن أحدًا لم يخرج، فعاود النظر من بعيد، ليجد المرأة قد عادت لمقعدها، وأخرجت حاجتها وحاجة ابنتها من الحقيبة، والصغيرة تعدو من جديد نحو قبر أبيها لتواصل لعبها أمامه، والأم تبتسم لها.

أدرك أنه اقتحم علي هذه الزوجة المكلومة لحظاتها وخلوتها مع ذكرياتها اقتحامًا غير متعمد منه، مضى يضرب بحذائه الأحجار التي تقابله متمتمًا: ليتني لم أسمع نصيحتك يا أمي فقد ضيقت القبور الصدور أكثر، ولم يبدد الصمت صوت أبي داخلى: أرعن طائش متهور.

سلطان عرش الدخان

هرول إلي الدار مسرعًا، عيناه نائمتان، وأقدامه كسولة متعبة لكن اليقظة لم تفارق يداه؛ إذ تضغط إحداهما ورقة السيلوفان المربعة الحمراء الملفوفة، يقف قليلاً شاردًا بماذا يبدأ، أيشعل النار أم يملأ الوعاء الزجاجي بالماء؟، يجري نحو ركن بالمطبخ يعرفه تمامًا يخرج منه صفيحة مليئة بالكيروسين، يفرغ منها بحذر فوق قطع الفحم المرصوصة بعشوائية في إناء من الفخار، ثم يقذف بعود الثقاب لتندلع النار التي ترسم ظلالها فوق وجهه إضاءات مختلفة، بينما يده تفك ورقة السيلوفان ليخرج منه قطعة بنية داكنة اللون يقرضها بأسنانه حتى تصبح نتفًا متساوية يدس منها نتفة في حجر دائري بينما يلتقط جمرات الفحم المشتعل بحنان ليضعه فوقها كأنه سادن من سدنة النار المقدسة في معبد فارسي.

يمد فمه في غاب الناي الطويل الذي ينتهي بوعاء الماء الزجاجي، يعتدل إلى الوراء في انسجام، ثم يأخذ نفسًا عميقًا يبلع معه هواء الغرفة، يسعل في عنف حتى يهتز ويهتز معه مقعده، ينتزع فمه فيتوقف عزف اللحن الأسود، تتقيأ خياشيمه دخانًا أبيض يتحول أمام عينيه النائمتين الضيقتين إلى كرسي يتجمع، خياشيمه مازالت تتقيأ دخانًا، يتجمع أكثر يكبر الكرسي أكثر فأكثر، يحس بأنه يجلس فوقه، لا يهدأ فمه من نزف الدخان، ولم تسكت يمينه عن دس النتف إلى الحجر، وقِطَع الفحم المشتعلة تواصل توهجها، يتصاعد الدخان حتى صار الكرسي عرشًا في ساحة قصر.

يجلس فوق العرش والجواري المغنيات القينات يترنمن بأغنيةٍ قديمة، يهتز طربًا فيهتز العرش ويهتز المقعد الخشبي الذي يحتويه، يشير بيده فيهرول إليه

الرجل الضخم الغارق في زيه المزركش المفعم بالألوان الزاهية راكعًا أمامه، يشير إليه ثانيةً بالوقوف صارخًا آمرًا:

ـــ من اليوم، يصير المحظور مباحًا.

يقاطعه الرجل الضخم:

ـــ لكن يا مولاي هو حرام!

ـــ يصرخ: من حرمَّه؟

يجيبه الرجل الضخم وهو يرتعد متراجعًا:

ـــ هُمْ، هُمْ يا مولاي.

ـــ من يحرِّمه يدخل الزنزانة، ويخرج الآخرون، من اليوم بل من الساعة يغلف ويباع ويهدى، انصرف.

يدندن مع الأغنية القديمة ويتذكر كم تسلل ليلاً يشق الحواري وصولاً إلى الزقاق النائي ليدق الباب العتيق بدقات معروفة، حذرًا يطلب فى همس، فينفتح الباب فتحةً صغيرة تسمح له بدس الورقات والتقاط المراد، ثم يقفل متقوقعًا، يحث الخطى كأنه يجري متلفتًا وجلاً كأن الدنيا كلها تراقبه وتترصده وستمسك به.

لا يكاد الاطمئنان يسرى في أوصاله إلا بعد أن يوصد باب بيته عليه، ليجدهم جميعًا ينظرون إليه شزرًا وقرفًا، زوجته وأولاده، فيدعه منهم ويمارس لعبته الآثيرة حتى يصبح وحده جزيرة وكل البيت يصبح بحرًا يحيط به.

يأنس أكثر بصوت المغنيات ودق المعازف فيهتز طربًا وأنسًا فيهتز عرشه ويهتز مقعده الخشبي الذي يحتويه، لايحس بكم الدخان المتصاعد منه الذي مازال يعلو ويعلو حتى يكاد يلامس سقف حجرته المعزول فيها، لفحة هواء قاسية تصفع الشباك البالي فتفتحه على مصراعيه، موجات الهواء الغاضبة تغزو بحر الدخان المتسيد جو الحجرة فتشتته وتطارده فتهرع القينات خائفةً مذعورة، وسكتت المعازف، وماتت الأغنية القديمة، حتى القصر أمامه تتهدم

أركانه، والكرسي يهتز تتآكل جزيئاته حتى يقذف من يحمله، ومقعده الذي يحتويه يكاد يلقيه، يصرخ:

ـــ أنا السلطان، أنا السلطان.

يفيق، ينظر حوله، يفاجئه الواقع، يبكي وهو يبحث بين الدخان المتبقي عن عرشٍ خرج من خياشيمه.

عندما تتكلم المرأة

لم يصدق عينيه وهو يرى صديق عمره مازال متوهجًا أنيقًا، كما أن زوجته تبدو وكأن السنين لم تفلح في أن تزحزحها من منطقة السن المحيرة، فمهما كانت براعتك في التخمين لاتستطيع أن تحرز كم عمرها الآن، أما المنزل فيجمع بين العصرية والعراقة في براعة سواء من حيث الديكورات أو الأثاث وكذلك اللوحات الفنية منها ماهو غربي ومنها ما هو بيد رسامين مصريين، أما الهدوء والنظافة والنظام والدقة فحدث كيف شئت.

لم يستطع الاعتذار عن دعوة الغداء هذه خاصةً وأن صديقه سيعرض عليه الشراكة في عملية كبيرة تغري بقبول الدعوة لأنه سيناقشه في تفاصيلها بعيدًا عن الأنظار وهذه سرية يحبذها.

أخذ صديقه يعرض عليه بنود الصفقة، وهو يستمع بتركيز، ولما حان منه الاستفسار عن بند منها ارتج القول على صديقه كيف لم ينتبه له وكيف الخروج منه، فما كان من صديقه إلا أن رفع صوته بالنداء على زوجته باسمها الذي يدللها به لتوافيه سريعًا، فيعرض عليها الأمر وقد بدا على وجهه نوعًا من الضيق لم تتحمله زوجته وأشفقت عليه منه، فإذا بها تهديء من روعه بصوتها الحنون، وتناوله مشروبه لتجلس بجواره ثم تتناول الأورق الموجودة على المنضدة وتتفرس فيها ثم تنظر لهما بابتسامة الخلاص، وتخبرهما بالحل الأول ثم بالحل الثاني البديل إن لم يفلح الأول، فيعتدل الرجلان وقد عقدت لسانهما الدهشة كيف غاب عنهما هذا، تغادر المرأة المكان والرجل يشكرها على فطنتها وذكائها كما أن زوجها يعدها بهدية كبيرة على حساب الشريكين من باب الوعد والمزاح.

ألح عليه صديقه وهو يرافقه مودعًا حتى باب سيارته، أن يجتمعوا على العشاء أيضًا ولكن خارج البيت، تعلل بأن لديه ارتباطات ولا بد له من قسط من الراحة.

أخذ يقود السيارة وحده بتمهل بعدما صرف السائق زيادةً في الكتمان والسرية، لقد قلبت له هذه الدعوة حياته رأسًا على عقب، صديقه المخضرم في السوق يخبره أن زوجته هيَّ العقل المفكر له في كل عملياته ويأخذ بنصيحتها، بينما هو أحب الديكتاتورية التي ورثها عن أبيه كما ورثت زوجته الطاعة العمياء لحد الانسحاق من أمها، وهذا ما أغرى أسرته في الارتباط بعائلتها استكمالاً للمسيرة، لقد تعلم من والده أن المرأة لا تشاور ولا تجادل وعملها هو تهيئة المنزل لاستقبال وتوديع سيدها، وها قد زحف العمر وأنجب، بل لديه الآن ابنة أوشكت على وضع وليدها الأول، وهو مستريحٌ لتلك العلاقة الرتيبة التى لا تخلق أي نوع من المشاكل.

حدث نفسه بيقين بأنه قد حان وقت التغيير، و لم لا؟! فالديمقراطية فرضت على الدول الصغرى من الدول الكبرى بديكتاتورية، إذن فسيفرض نوعًا ما من الديمقراطية أو مسحة شكلية من الديمقراطية كما فعلت صغار الأنظمة؛ فالديمقراطية من وجهة نظره و كما قرأ عنها وفهم تكلفتها عالية وهو في غنى عنها.

حاول سريعًا أن يعوض ما فات، ويفرض ديمقراطيته على المرأة، غير أن زوجته أذهلتها المفاجأة وهو يعرض عليها تفاصيل عمله ويطالبها برأيها وهيّ كما اعتادت ليس لها من تعليق سوى:

ـــ افعل ما ترى صالحًا لك، أنت أدرى مني.

بينما هو ينخلع من مكانه صارخًا فيها، وهيَّ لا تفهم سر غضبه أو ما المطلوب منها فتستنجد بأولادها ليشرح لهم وجهة نظره بأن ما يريده أن تعارضه، تجادله، تنبىء عن رأيها، فهو يقترح مثلاً أن تلد ابنتهما الكبرى في مستشفى فما رأيها؟

دخلت الابنة الوسطى عليها وسألتها، ولم تمر لحظات حتى خرجت من الغرفة لتعلن قول أمها أن الولادة فى البيت أفضل بيد المولدة التى يعرفونها، فيحس ببعض الفرحة على هذا البعض من التغيير.

تلد البنت في منزل العائلة نزولاً على رغبة الأم الحديثة عهد بالمعارضة، لكن الهرج والمرج الحادث بغرفتها ينبيء عن أن الولادة متعثرة.

ـــ نحتاج إلى طبيب، والوقت متأخر

يهلع الجميع، يدعو الجميع، يصدم الجميع، البنت ماتت وقد تركت وليدها، ينظر الرجل إلى زوجته ملتاعًا، يحاول أن يتملص من المسئولية، تنظر إليه في حيرةٍ من أمرها ودموعها التي تغلبها أيضاً تتهمه، ينظر إليه ابنه الأكبر في شبه غضبٍ مكتوم:

ـــ أمي لا لوم عليها؛ فهيَّ ليست آلة بأزرار تريدها مطيعة فتضغط الزر الأخضر، تريدها مجادلة ومعارضة فتضغط الزر الأحمر، لقد عشقت أمي اللون الأخضر كما عشقته أنت، ارتاحت إلى الاجبار فالاختيار مسئوليتها والإجبار مسئوليتك.

وقبل أن يكمل لائحة الاتهامات الثقيلة، غادر الأب مكانه، ليتكوم في غرفته ولم يخرج منها، وهو يلعن اليوم الذي رأى فيه صديقه وزوجته.

*القطار

لم يكن فى نيته يومًا الارتباط بها، فليس كل الأقارب يتزوجون بالضرورة من أقربائهم، لكنها تصر عليه.

ـــ تربينا معًا، وعشنا معًا، وكبرنا معًا، حتى العمل بالمدينة نذهب إليه معًا ونعود منه معًا، اللعنة على مشوار المدينة اليومى، فهو الذى يغذى ذلك الوهم النابع من رأسها فقط.

ينحدر بهما الطريق الرملي جانبًا وهما في طريقهما لركوب قطار العودة، أحس برعدة كاد أن يسقط، تدركه من ذراعه، يمتقع لونه وهو ينظر إليها مشفقًا، يخلفان وراءهما غبارًا خفيفًا، الأقدام تفر من تحتها الرمال، الشمس يخنقها الغروب، تتوارى. المقابر تسير مع الطريق تصاحب الأحياء رحلة الدرب الرملي الطويل، ينظر نحوهم يتمنى لو كان هناك، تبدو عربات القطار المسترخية على أشرطة القضبان الفرعية أمام بقايا من بيوت رحل عنها ساكنوها، ينظر نحوها يتمنى لو كان مع من رحلوا.

ـــ ما ذنبى؟! أبى يهجرني صغيرًا لأمٍ أنهكها الانتظار وشماتة المحيطين فهجرتنى رغمًا عنها بالموت، يربينى عمي في بيته، أكبر معها، تحبني ولا أحبها، ومن أحببتها وتزوجتها بعيدة حيث العاصمة وابني معها.

ينظر نحوها بعطف، تنظر إليه شذرًا، يسكنه اللون الأصفر، عيون الأموات ترقب حياتهما، كادت تتعثر في حجرٍ ناتيء صغير، يمسك يدها تجذبها دفعةً واحدة، يغزوه اللون الباهت ثانيةً، يرتعد، تثبت عينيها في عينيه، شفتاها تتحركان، تتلو صحيفة جرائمه، يسقط فى يده، يتسمر.

ـــ من المؤكد أنها عرفت قصة زواجه وانجابه سرًا ممن استأمنهم عليه فأذاعوه.

تتكلم، لم يكن معها، تنهره في عنف، يغرس بصره في موقع قدميه، تزجره، يتشجع على الكلام، تدمدم الأرض تحتهما، يغزو الكون صوت قادم، احتواهما

الفزع، قطار آتٍ من بعيد، يتكلم، تسرح لاتسمعه، تستصرخه، يحاول الكلام، صوت القطار يبتلع صوته، لا تسمع، تتلو عليه ذنبًا آخر، يعلو صوته مدافعًا رافضًا موقفه الذليل لفضل أبيها الذي تُحسَّن استغلاله، تصغي في ذهول، يأكل صوته غضب القطار البطيء، تصرخ في وجهه، يتقهقر، تمضي أمامه يائسة، السكون يشجعه على الكلام، فتح فمه، التقط صفير القطار عباراته، محاها، تشده إليها، القطار الغاضب مازال يسير الهوينى على القضبان المنهكة التي لا ترحب باستقباله، نظر إليها النظرة الأخيرة، ليس له من أملٍ هنا، شاع أمر زواجه عندها فمن المؤكد أن البلدة كلها علمت بأمره وأهلها والعمدة وإمام المسجد وعمه وهذا ما فعلته ابنته فكيف هو؟ محاكمات في المجالس وتقطيع سيرته سهارى وحكايات على المصاطب و .... و .... و ...

ـــ سأركب القطار، ابني ليس له عم هنا أو هناك.

ـــ قطارنا لم يأت موعده بعد، انتظـــــــــــر.

لم يسمعها، كان قد أخذ قراره، واتجه نحو القطار مسرعًا، يعانق ظله ظله، يتحدان، تصرخ فيه، رأتهما جسدًا واحدًا، خيل إليها أنه غطى بجسده القطار أو أن القطار قد تمدد فيه، يلوح لها من العربة الأخيرة، تحاول أن تلحق به، تصرخ باكية :

ـــ عد.

يتكلم، تصغى، يأكل آخر كلماته صوت قطار يعلن عن رحيله، لم تسمع، تزجره، ذهب صوته، وذهب القطار، لتبقى وحدها والدرب الطويـــــل.

---

* فازت قصة القطار في مسابقة "قصص على الهواء" التي تنظمها مجلة العربى مع إذاعة BBC ، وقد اختارها الناقد البحريني فهد حسين لتفوز عن شهر مايو 2010 ، معللاً سبب اختياره لها بقوله : (قصة فنية تعاملت مع شخصيتين رئيسيتين لإيمان القاص بقدرة القصة على طبيعة استيعاب الشخصيات في القصة، بلغة قصصية جميلة وتقنية تعاملت مع القص بشكل فني. وضحت فكرة البعد التراثي في الفكر التقليدي للعائلات في المجتمع).

طقوس للعودة

(1)

صفع الباب خلفه ليهوي صداه على وجهها، أقسمت لمن معها فى الغرفة:

ـــ سيعود.

دس ملابسه الشتوية بل الصيفية فى حقائبه بالرغم من حرارة الجو الخانق هذا الصيف، اصطنعت ابتسامة اللامبالية وأقسمت بشرفها:

ـــ سيعود.

انسحبت الأقدام من الغرفة، اصطك الباب الخارجي مخلفًا البرودة والوحدة وعبق رائحته في الفراش وعلى وسادته التي احتضنتها فى شوق، أنفاسها الحارة أفزعت صفحة خديها، انتفضت لتنظر إلى صورته التي يتوسط بروازها الحائط وكأنها تراها لأول مرة، أقسمت له بذقنها:

ـــ ستعود.

طالما تركها بعد عراكٍ وعاد، أوعزت إليها صاحبة القدمين الباقيتين المتسللتين إلى الغرفة أن تذهب إليها، فهيَّ مبروكة وسرها باتع ومتجربة، أزجتها العنوان المتقوقع في صدرها لتدسه الأخرى في حقيبة يدها بعناية:

ـــ ليس اليوم، فموعدها الأثنين والخميس من كل أسبوع صباحًا، قبل أن تتعافى الشمس، وأقسمت لها وهى تدق صدرها بيقين الواثق:

ـــ سيعود.

(2)

أشرقت مع صبح الخميس مبكرًا لتدرك الشمس قبل أن تتعافى فتلطم وجه الدروب والبيوت بحرها، تتطاير في عينيها فرحة تنتقل إلى شفتيها في شبه ثقة:

ـــ سيعود.

أوقفت السيارة عند نهاية الطريق الملتوي كالثعبان الذي فقد وليفه، فقد كان عليها أن تكمله صعودًا نحو أعلى الجبل.. ما كان عليها أن تعيِّرهُ بأهله وأصله هذه المرة، لكنه أيضًا لم يسكت فقد بادرها الصفعة بلكمة أنه لَمْها كالكناسة بعد زيجتين فاشلتين.

ـــ اسهر مع أصدقائك ليلة ومعي ليلة.

أشهر في وجهها سيف ملالتها وكآبتها وتفاهتها، القبور تطل عليها من أقصى اليمين تنتظر صعودها، والأتربة تحتفل بحذائها الأسود فتميد به وتغور، يتناهى إلى مسامعها نباح كلاب لا تراها، وصوت امرأة تضرب ابنتها، وأخرى تتهكم من زوجها وتقلد شخيره عن ليلة أمس وهو يسبها، تتعثر قدمها اليمنى، فتزمع العودة:

ـــ لا لن أعود هو الذى سيعود.

أشاروا لها ناحية البيت المنزوي في نهاية الممر الضيق المتعرج كأنه نقطة فى آخر السطر.

ـــ لولا فتوته ورجولته.

زيجتين سابقتين لم تظفر منهما بمثله، فالأول أصغر منها وزواج مصالح، والثانى أكبر من والدها وأيضًا زواج مصالح ومطامع، لم تصهرها أنفاس محترقة بنار الشوق وصهد الوجد مثل أنفاسه التي أذابت فوق وجهها العرق البارد، وأطاحت بالشعر الفاحم نحو الصدر وعلى الكتفين..

تدق بعنف الكرة الحديدية المثبتة بالباب الكالح، ينثال من خلفه صوت بين الأنوثة والذكورة، تتراجع خوفًا، لم تترك لها المرأة فرصة للتراجع، قادتها إلى غرفة بعيدة عبر دهليز شبه مظلم، بصيص من النور يبين

دار ناشري للنشر الإلكتروني

بالكاد الرتوش والظلال، ترمي ثقلها على المعالم فتكاد تخفيها، أنارت المرأة شمعدانًا قديمًا وأزاحت الباب ثم دعتها للدخول، ترددت، طمأنتها المرأة:

ـــ دستور يا اسياد.

أمرت صبيتها، فأشعلت الفحم وأطلقت البخور لينكشف المستور، تقدمت العجوز نحو أذنها اليسرى هامسةً:

ـــ سيعود.

(3)

ـــ لم يترك لى طريقًا غير هذا لأسلكه، ستغدو مصيبة لو لحق بسابقيه وتركني وحيدة مضغة فى أفواه الشامتين من العائلة والجيران وشلة النادي، حاولتُ ترويضه فلم أفلح.

هدأتها وتناولت منها القطعة الداخلية الممزوجة بعرق الزوج الآبق وسألتها عن اسم أمه، تحضر الصبية موقد البخور الكبير، وتهم بإزاحة الستار عن تمثال نصفي من الطين على هيئة رجل يتوسط منضدة خشبية عتيقة تتوسط الغرفة، تراقب المشهد فى ذهول.

تدخل الصبية بطبق يحوي ثلاث ثمرات مختلفات من التفاح والموز والبرقوق، تغمز العجوز لصبيتها فتخرج بعد أن تغلق الباب، تقفز رعبًا تود لو لم تحضر أو يؤذن لها بالانصراف، تتجاهلها العجوز التي تمضي نحو الحائط لتحضر جلبابًا أسود فضفاضًا كان معلقًا على مسمار خلف الباب، تنفضه وهى تتجه نحوها، كادت تصرخ، تطمئنها العجوز. وأمرتها فلبسته فوق ملابسها، ربتت على كتفها، نثرت لها شعرها،

دار ناشري للنشر الإلكتروني

تعترض، نهرتها وقد غمست أصابعها في الرماد المحترق بآنية البخور لتسوِّد لها وجهها وظاهر كفيها وجبهتها ثم نفخت فى البخور وهى تتمتم.

دخان البخور يسبح في الغرفة، يعلو صوتها بكلمات وطلاسم، تتناول ثمرة الموز لتضرب بها فم التمثال:

ـــ لا تقل لها غير حاضر ونعم.

تنفرج أسارير المكلومة المظلومة إعجابًا بجسارة العجوز، تمسك بثمرة البرقوق لتضرب بها أذنه:

ـــ لا تسمع لكلامٍ غير كلامها.

تحس في قرارة نفسها بنشوة الانتصار على أمه وأصدقائه، ثم تصوب العجوز الواثقة بالتفاحة نحو عينيه وهى تقول:

ـــ لا ترى في عينيك أجمل منها.

مالت على القطعة الداخلية له وألقتها على الأرض، ثم هوت عليها العجوز بحذائها اليسرى تضربه بيمينها القوية سبع مرات، وقد علا صراخها في لهجة صارمة آمرة والبخور يموج كالطوفان، تنظر إلى أعلى بعينين جاحظتين كأنما تحادث شبحًا في الفضاء:

ـــ يا سنداس أين الإخوان؟ هاتوه وقيدوه، وعلى بابها أطلقوه.

تلكزها لتردد معها وهى كالبلهاء تراقب في ذهول:

ـــ يا حابي يا حابي يا سامع وجابي، هتهولها مصطلح مش غضبان، إن دخل نفق، وإن طلع نفق، خلوا نجمها مع نجمه عندكم متفق.

أحست بعد كل ما سمعت ورأت بل تأكدت بحتمية قدرية، وهي تخلع ذلك اللباس الأسود وتتهيأ للرحيل:

ـــ سيعود.

(4)

أوشك نهار اليوم الثاني على الرحيل، نبضات قلبها تقفز كلما رن جرس الباب أو الهاتف، تتصور قدومه راكعًا ساجدًا يقبل قدمها اللينة البيضاء، وتارة أخرى تتخيله أنه ربما جاء متأخرًا ونام فى غرفته ليكون أول ما يفعله بعد استيقاظه أن يمرق من باب غرفتها إليها ليمطرها بالقبلات على خديها وذراعيها البضين طالبًا الصفح والغفران، أو ربما مازال حابي وجابي يطوفان حول أماكنه المعتادة ليأتيانها به، ولاشك أنه عاندهما وقاومهما فهي تعرف رأسه الصخرية، لكن صاحبة القدمين المتسللتين لغرفتها تؤكد لها بيقين أنه قادم، فتطمئن.

مر زمن ثقيل عليها من الاستعداد لاستقباله. فاجأها جيش جرار من رنين جرس الباب، اصفر وجهها، اعتدلت، هبت واقفة، تعدو نحو الصالة، أخذت هيئتها المتأنقة المترفعة، فأزاحت الروب الزاهى الساخن فوق الساق المرمري التي تهتز بلا مبالاة فوق الساق الأخرى، تأمر من معها بفتح الباب وأعطت ظهرها للداخل منه، تناولت مجلة تفتحها ولا تقرؤها، لابد أنه هو:

ـــ يـاه، لقد تأخر.

المسافة بين الباب ومقعدها ليست طويلة. لن تسأل خادمتها من الطارق، ولن تهرول لتستطلع الأمر، فكلها ثوان وسيأتيها زاحفًا، منكسرًا، ذليلاً:

ـــ وسأتدلل، وأماطله العفو والصفح، حتى يذعن أكثر وأكثر، ولا يجرؤ على هجرى ثانيةً، تحادثها الخادمة وهى شاردة لاتسمعها، تراها، أفزعتها بصرخة حاولت كتمانها:

ـــ أين هو؟

ـــ لقد مضى يا سيدتي.

ـــ وكيف لم تنادني؟!

ـــ لم يكن هو يا سيدتي.

تناولها مظروفًا، فضته بسرعة، تنقلت عيناها بين السطور وبين الخادمة، تدخل صاحبة القدمين المتسللتين عليها فزعة، نهرتها وسبتها هىَّ والمبروكة، عادت لتقرأ الخطاب مرة أخرى، صارت زوجة لثلاثة أزواج كلهم بدرجة زوج سابق.

قطعت غرفتها المغلقة عليها ذهابا وإيابًا وهيَّ تعد الأسباب الملفقة، وتؤلف القصص المحبوكة، لتكون مستعدة للإجابة عن أسئلة الأهل، وتساؤلات الجيران، وغمز ولمز شلة النادي، والأهم عندها البحث عن سبب أروع وأوجه للزوج الرابع عندما يسألها وحتمًا سيسألها عن سبب طلاقها الثالث.

رجل وامرأة، وموظف (قصتان)

(1)

وقف الرجل يتصبب عرقًا، وصدره يعلو ويهبط كأنه خارج لتوه من مسابقةٍ في الركض، بيده ورقة مثقلة بتوقيعات وتعليقات ملونة بالأحمر والأخضر وأخرى بالأسود، حائر، لمن يتقدم بها؟ عاجله أحد السعاة بالمكان دون طلب منه، فالتقط الورقة من يده بحرفية الخبير، نظر إليها هنيهة ثم ربت على كتفه يطمئنه بأن طلبه يعرف الآن طريقه.

مضى الساعي وبغمزةٍ من عينيه تابعه الرجل كطفلٍ متعلق بوالده مخافة المتاهة، أدخله مكتب يجلس وراءه موظف مهيب الطلعة، هاشًا ودودًا، أذن للرجل بالجلوس، وأشار للساعي بالانصراف وهو يمسك بالطلب ينعم فيه النظر وأمسك بالقلم.

تنفس الرجل الصعداء، ولكن الموظف يدفع القلم جانبًا قبل أن يخط حرفًا بيمينه، ونظر إليه بابتسامة ويسأله عن حاله وحال الدنيا من حوله، وموجة الغلاء، والرشوة والفساد، وسوء أخلاق وأحوال الموظفين.

اعتدل الرجل في جلسته وجاذبه أطراف الحديث منشرحًا وانتقد الأحوال بأسلوب مهذب، ولكن الموظف الكبير أبى إلا أن يسب أفعال الموظفين واستهجن مسالكهم الملتوية لتصيد النقود من جيوب الناس، ثم تباهى وتفاخر بمسيرة حياته الوظيفية الناصعة البياض، شكر له

الرجل حسن تقواه، ودعا له من القلب رافعًا أكف الضراعة للسماء أن تقبل ومسح كفيه بوجهه وصدره، بينما عيناه تتفرسان الورقة والقلم.

أمسك الموظف القلم مرة أخرى، نظر الرجل إلى السماء متمتمًا، ولكنه دفع القلم ثانيةً بعد أن كتب قرابة نصف السطر ثم سأل الرجل بنبرة كرم عالية مصطنعة عما يجب أن يشربه، شكر له الرجل حسن لقائه وكرمه وأدبه، أمسك القلم وأكمل، تشجع الرجل وتقدم نحوه بسيجارة، اعتذر الموظف بأنه لايدخن، فلعن الرجل السجائر ودخانها ومدخنيها ثم رماها وهو يدعو بالصحة وطول العمر له ولعياله.

مد الموظف يده بالورقة، تلقفها الرجل كأنها وليد رزقه الله به، وقام مع انحناءة شاكرة وربت على يده ممتنًا، ورفع نظره بالسلام وهو يعود بظهره نحو باب المكتب خارجًا، يشيعه الموظف بابتسامة واسعة عريضة، ارتطم جسم الرجل بجسم أحدهم، التفت إلى صاحب الجسم الآخر معتذرًا، غير أنه لم يكن جسمًا غريبًا؛ فقد كان الساعي بترسانة جسمه السمين متسمرًا ومعسكرًا عند الباب.

مال على أذن الرجل هامسًا، نظر الرجل إلى الموظف نظرة فاحصة استفهامية أخفاها كما أخفى دهشته، وضع يده فى جيبه، تقدم نحو الدرج اليمين المفتوح، والابتسامة لم تزايل وجه الموظف والساعي بل صاحبت الرجل حتى الباب مع الدعوات المبحوحة واللعنات المكتومة.

(2)

تذكر أنه منذ زمن مضى لم يكتب لها أو فيها كما كان يفعل هذا في بعض الأحيان، كما لم يقضيا معًا أجازة خارج البلاد مثلما اعتادا، عمله الدائم والشكوى الدائمة منها، إنها القصة القديمة الجديدة فالمرأة تطالب الرجل بالماديات، وعندما يحارب من أجل تحقيقها يضيع فيها الوقت، تتنبه المرأة فتلعن الماديات وتطالب بالوقت.

سحب ورقة من أمامه وبدأ يخط أجمل العبارات وأرق الكلمات مادحًا حبها له، وإخلاصها الشديد، ووفائها الأسطوري لشخصه في حضوره وغيابه، دسها في جيب قميصه، رفع سماعة الهاتف مستفسرًا، فعلم أن جدوله خال من الاجتماعات اليوم، رفع السماعة الأخرى مستأذنا في الرحيل مبكرًا لشعوره بالإرهاق.

مضى يحدث نفسه:

ـــ ستكون ولا شك مفاجأة ساره لها، أمضيت في العمل نصف الوقت تقريبًا وبقية اليوم كله معها، فلا اجتماعات سرية ولا زيارات عائلية، ولا ... ولا...

أوقف السيارة أمام محل الورود، اختار أجمل باقة ورد بروائحها وألوانها وأنواعها التى تفضلها وتحبها.

مرق من باب البرج الذي يسكنه، ترك المصعد وارتقى درجات السلم منتشيًا فرحًا كتلميذ صرفه معلمه من المدرسة مبكرًا.

دار ناشري للنشر الإلكتروني

قرر أن يتنازل عن عادته اليومية في دق جرس الباب، ويفتح بمفتاحه لتكتمل عناصر المفاجأة، تلكأ المفتاح في يده المرتعشة قليلاً، ثم أداره بهدوء، دلف إلى المدخل ثم الصالة مجتازًا غرفة الطعام، لم يجدها، تعجب!

ـــ أتراها خرجت؟! ليس هذا من عادتها.

سار على أطراف أصابعه في الممر الطويل المؤدي إلى غرفة النوم.

ـــ لعلها مازالت نائمة مجهدة من عمل المنزل.

هكذا برر لنفسه، أمسك الورقة والورد بيد، وفتح بالأخرى الباب، النور الهادىء يحيط بالمكان، وتنهدات هادئة لا تخطيء الأذن ترجمتها، أضاء المصباح المبهر، نظر على سريره، تسمر، ألقى بالورد تحت قدميه، ومزق الورقة، ولعن العودة المبكرة.

لحظة انسحاب

ظهرت على شاشة التلفاز فجأة مذيعة شقراء تصطنع التجهم بينما كنت أتابع حلقة من مسلسل كوميدي معاد لتعلن انهيار برجيّ نيويورك العملاقين ، حتى قفزتُ في الهواء راقصًا ومصفقًا بينما كان أولادي ينظرون إليَّ في ذهول واستغراب، ثم توقفت بعد أن عدَّلت هندامي، وتابعت الأمر بجدية مفتعلة حينًا، وجادة حينًا أكثر.

خرجنا لنتناول العشاء في أحد المطاعم التي يفضلها الأولاد، بناءً على نصيحة هامسة من زوجتي، في محاولة منها لإعادة الاتزان إلى شخصي الكريم في عيونهم، ولكي أفسر لهم ما حدث مني في نهار اليوم.

انصرف الجرسون بعدما انتهى من رص الأطباق على المائدة فبادرتهم بتبرير ما حدث مني بأسلوبٍ ودود لا يخلو من محاولة التأثير على عواطفهم وموقفهم حين أشرت بيدي إلى ناحية بعيدة:

ـــــ كانت فرحتي انتصارًا لأطفال العراق وأفغانستان.

ولكن أكبرهم فاجأني:

ـــــ وماذا عن أطفال أمريكا؟!

خرجت عن تمثيل شخصية الأب الهاديء المتفاهم، وكشرت عن أنيابي:

ـــــ يتحملون ذنب ما جناه آبائهم في هذا الجرم.

أكملوا طعامهم في هدوء، ولم يرفعوا أنظارهم من أطباقهم إليَّ كأنهم يتحاشوني، وقد كان هذا دلالة على عدم اقتناعهم بما قلت، فالعنف لايولد إلا العنف، على هذا ربيناهم ـــــ ببلاهتنا ـــــ أنا وأمهم.

.....

"يسقط يسقط حسني مبارك" هكذا أطلت الحشود الهادرة بميدان التحرير تكاد تهجم علينا من شاشة التلفاز الذي أشارت إليه زوجتي صارخةً:

ـــــ أدرك ابنك أنه مع من تطاردهم رصاصات وخراطيم مياه الشرطة.

هدأت من روعها، ،أنا أحدق في وجوه الشباب الثائر:

ـــــ يا ستي ليس هوَّ، فكلهم متشابهون.

انسحبت من أمامي وهيَّ تبكي رافضةً أن تكذبني، ولكن نظراتها تنطق بذلك، وعدت أنظر للتلفاز ليتأكد لي صدق إحساسها وكلامها.

عاد الأولاد ليلاً إلى المنزل، وقد أنكروا في إصرار توجههم بل تواجدهم بالميدان، لكن أصدقائهم هناك ينتظرون بيان الرحيل، تعلقت نظراتي الوجلة بنظرات زوجتي والتي تؤكد ألا رحيل.

مرت الأيام بطيئة خانقة، يظهر الأولاد أثنائها ويختفون، بينما قلب أمهم يحس بوقع أقدامهم في الشوارع مع أقرانهم من الثوار، وعقلي لايرفض إحساسها؛ فغيابهم وحضورهم له أسبابه المقنعة والتي حرصوا على ألا يخرجوا عن جدولهم المعتاد إلا قليلا.

تنفعل زوجتي وهيَّ تمرق أمامي من الغربة ثم تقف لتحجب شاشة التلفاز دون قصدٍ منها:

ـــــ ولا أي ولد من أولادك يرد على مكالماتي، إما رنين أو مغلق، فبماذا تفسر هذا؟!

ـــــ أوكي، ولكن ابتعدي عن الشاشة فسيظهر الرئيس بعد قليل.

جلست وهيَ تتململ بجواري وعيوننا معلقة بشاشة التلفاز، بينما الرئيس لا يظهر، حتى أصابنا اليأس والإعياء، وزوجتي لا تمل ولا تيأس من محاولاتها المتكررة الفاشلة، في الاتصال بالأولاد، وأعرف يأسها وخوفها من زفراتها القلقة، لكننا لم نيأس من ظهور الرئيس.

انسحبت من الغرفة لأعد لنفسي فنجانًا من القهوة في محاولة مني للهروب من قلقي ومن قلقها، وقتل الوقت القاتل أصلاً، تناديني:

ـــــ لِمَّ لمْ تطلب مني؟!

ـــــ أأعد لك فنجانًا معي.

ـــــ لا، شربت قهوتي صباحًا.

وقفت مع فنجاني استعرض مشهد الشوارع الحزينة الكئيبة الحائرة، أدركت أني لا أستطيع التفكير.

ـــــ تعالى، أسرع، لقد ظهر الريس.

هرعت إلى الداخل، نسيت القهوة، سمعناه، بكينا، نفس الوقت الضائع، والبطء الشديد، والشكل الباهت البارد، تذكرت قهوتي، أصبحت باردة، لقد فات أوان شربها، مثلما فات أوان كل شيء.

دق هاتفينا في وقتٍ واحد، نشوة النصر تبدو في نبراتهم، تهرع هيَّ إلى المطبخ؛ فقد وعدتهم بالاحتفال عند عودتهم بهذا النصر الكبير، رغم البكاء المرير على هذا الأحمق الكبير في يومه الأخير.

تظاهرنا معًا أمامهم بالابتهاج، وهنأناهم على نصرهم السريع، وكفاح جيلهم القصير، ليفاجئني أكبرهم:

ـــــ لكنني مع هذا بكيت وأنا أسمع خطاب الرحيل!

ربت على كتفه، وأمعنت في الإعلان عن الفرحة بينما دموعي كانت تقوم بدورها التاريخي في الانهمار، حتى ظنوها دموع الفرح، حاولت الانسحاب إلى غرفتي في هدوء، ولكنه جذبني برفق:

ـــــ وأنت أيضًا بكيت يا أبي ، وكذلك أمي، إنها العشرة، وهو الكبير الأب وإن كان رئيسًا، إذ كيف لابن أن يطالب بإسقاط أبيه؟!

ـــــ ولكن يابني الأب ظلم.

ـــــ ولكنكما لم تعلمونا ما الذي نفعله مع الأب إذا ظلم؟!

أصررت على الانسحاب، دخلت غرفتي، تكومت في سريري، فكرت فتكلمت بصوتٍ عالٍ دون أن أحس:

ـــــ نعم، هيَّ مأساتنا، علمناهم الطاعة ربما إلى حد الخنوع، علمناهم الحوار، ولم نعلمهم المعارضة ولا الثورة ولو على أبسط الأشياء، قهرنا عصيانهم، كبتنا بكاؤهم، تفننا في وأد أحلامهم، وزرعنا فيهم أحلامنا حتى صارت أحلامهم، سخرنا من آرائهم، وطاردنا آمالهم حتى قبل أن ينطقوها.

خرجت من غرفتي، لاحظت زوجتي توتري، سارت نحوي، ينظرون إلينا، أوقفتها بجانبي:

ـــــ لقد فعلنا معكم مثلما فعل مبارك، ولكنني لن أعذبكم بالانتظار الممل، والقرارات البطيئة، فدعوني أعلن أمامكم بالأصالة عن نفسي، وبالنيابة عن والدتكم أننا قررنا الرحيل عن حياتكم بأفكارنا، وتسلطنا، ونحن مستعدون لأن تحاكمونا على أخطائنا معكم في الماضي.

صفق الأولاد تصفيق حاد، بينما احتضنتني أمهم بعمقٍ ودفء، ثم انضموا فاحتضنونا معًا، ووعدانا وهم يضحكون بالتماس الرأفة عند النظر في قضيتنا، مع التأكيد لنا أنهم لن يكرروا ما فعلناه مع أولادهم.

تحلقنا حول المائدة نتناول ما لذ وطاب مما صنعته زوجتي الماهرة بفنون الطعام بفضل الشيفات الذين يملأون القنوات، يناولني ابني الأوسط كوبًا من الماء المثلج:

ـــــ صدقني يا أبي الشهيد ارتاح، بينما الأسئلة مازالت تدور برؤوسنا، هل ما فعلناه كان صوابًا؟ ألن يجد الندم لنفسه طريقًا في قلوبنا بعد مرور السنوات فنعترف بخطأ قيامنا بتلك الثورة.

ثم أكمل الأصغر:

ـــــ تقصد مثل قتلة الرئيس السادات، أو كما ندمت أنت يا أبي على فرحتك فيما بعد بانهيار البرجين؟!

نظر جميعنا إلى جميعنا، ادعت زوجتي انهماكها في توزيع أطباق الحلوى، بينما امتدت يدي لتدير شريطًا لأغنية قديمة من فيلم قديم:

(احكي وقول ع الناي، عيشة الفقير إزاي؟ راح اللي راح ياعيني، بس يا خوفي م الل جاي).

رغم أنفه

أخذ يجوب الشوارع النائمة في جنبات المدينة الهادئة بعد منتصف الليل، يقلب كفيه تارة ثم يضربهما ببعض تارة أخرى، يهمس محدثًا نفسه بصوتٍ يصرخ داخله:

ـــ أصحيحٌ ما حدث؟ أفعلاً مايقولون؟

كل ما يتذكره أنه وقف بينهم كالمعتوه وهم حوله يهرولون، يفتحون كل الأبواب ويدخلون كل الغرف، وفي أيدي كل منهم شيء ثم يتجهون إليه، هذا يزرر له قميصه، والآخر يساعده في ارتداء الجاكت، والثالث يربط له رباط العنق، وتلك ترفع يده لتضع الأزرار اللامعة في أساور قميصه الوردي، بينما هذا يربت على كتفه بحنان، وهذه تملأ أذنيه بالزغاريد، وتلك تسيل دموع الفرح على خديها وهي تنظر إليه:

ـــ يا أمي، أنا مازلتُ صغيرًا.

ـــ ولكنك وحيدي.

ـــ لا أتذكر أني أعرفها، ولا أحبها.

ـــ ولكنني أعرفها وأحبها، وخطبتها لك، أستغضبنى ياولدي وتبدل فرحتي قهرًا عليك؟

كان كالغارق الذي تلذذ بالغرق بين أيديهم وارتاح للموج الدافء الحنون، أو هكذا أوهم نفسه، ينحرف مع الشارع يمينًا تصفعه نسمة هواء ليلية باردة، لايشعر بهم إلا وهم يدفعونه نحو السلم مرورًا من باب البناية الخارجي ليزجوا به في السيارة التي زينتها الورود، تتحرك لتتحرك خلفها سيارات وأمامه الدراجات البخارية، يغطى سماء الموكب وابل الزغاريد النارية، لأول مرة يحضر جنازة تصحبها الزغاريد، كاد أن يتعثر في حفرة مياه صغيرة تخطاها بعدما

لوثت بعض حذائه، عبر الميدان لينتقل إلى الجانب الآخر من المدينة، تقف به السيارة أمام بيت تغطيه الأضواء المنسدلة من اللمبات الملونة الكثيرة الممدودة بعرض الشارع والميكروفونات تمطر أهل الحي بالأغانى الشعبية الفاقعة والزغاريد الفجة التي يعلو انطلاقها بمجرد رؤيته قادمًا، يتلقف المهنئون خديه ليطبعوا عليها قبلاتهم بلا رحمة ولا انتظار، كاد يغمى عليه لكنه تماسك، أدخلوه وأجلسوه، يشيرون إليها:

ـــ مارأيك؟

يجيبهم فى بلاهة: جميلة.

يهمس فى أذنه: الغرفة المجاورة.

قام يمخر عباب بحر الأجساد المتلاطم حوله وصينيات الشربات والزجاجات المثلجة، وعبق العطور الغريبة والمعروفة، الجيدة والرديئة التي تتزاحم على مقدمة أنفه، يتخلص منها بعطسة، يدخل

ـــ اغلق الباب وراءك

ـــ أنا؟!

ـــ نعم أنت

ـــ هيا هيا، المنديل، يفتش في جيوبه.

ـــ أليس معك منديلاً؟!

ـــ نعم معي.

ـــ إذن أخرجه، يخرجه.

ـــ ضع يدك في يده .

ـــ لماذا؟!

ـــ قل مثلما أقول.

وقال مثل مايقول ولم ينتبه إلا حين طار المنديل من أمامه، خرج الرجل بدفتره، وخرج معه، وكل من كانوا بالغرفة، سرت في المدعوات بمجرد رؤيتهم كهرباء الفرح فأطلقوا عليهم الزغاريد، ارتاع وجهه واصفر، يصرخ فيهن:

ـــ ماذا حدث؟!

احتضنه أحدهم : معذور، لقد تفاجأت، صرت من اليوم زوجًا يارجل.

يدفع الرجل بعيدًا عنه في غلظة والرجل يضحك، أخذ يزيح أمواج اللحم من نساء ورجال ليشق طريقه من البيت حيث الشوارع الصامتة، يقطع صوته صفحة الليل غضبًا لتضيع كلماته في نبرات صوته المتهدج الضعيف الذي عجز عن التسلل إلى الآذان النائمة المتوسدة، ومثل سكون الليل سكن يحتويه الشارع المظلم بلمباته المعطوبة على الأعمدة المتهالكة كعناقيد فرغت منها حباتها، بينما تحتضن أمه العروس الباكية تطمئنها وتطمئن من حولها:

ـــ دعوه، سيعود، هكذا كان والده، وهكذا شأن الرجال.

تتبادل الغمزات مع النساء، فتنطلق الضحكات والزغاريد والأغاني من جديد.

وِزْرَ الأُخْرَى

دخل بيته وكأنه شيخ قد جاوز السبعين، لم يلق تحية المساء على زوجته كما اعتادت من لطفه وحسن معاشرته، حتى لو كان في عمله من المشاكل ما تنوء بحمله الجبال والجمال معًا، إلا هذه المرة فهيَّ تدرك تمامًا عمق المشكلة، لقد حدث مالم يكن يتمنيانه لا هو ولا هيّ غير أنه حدث ولابد أنه سيلقي عليهما بظلال كثيفة ثقيلة بل حمم بركانية ملتهبة قد تحصد معها كل حب السنين إن لم تجرف معها بيتهما بجرافات الغضب المحموم والانتقام والثأر لكرامته وكرامة أخته الصغرى التي طلقها منذ ساعات أخوها الأكبر وصديق عمره.

تمدد في فراشه بملابسه وحذائه، تقترب لتساعده في خلع ملابسه لكنه يشيح بوجهه رافضًا، تستأذنه في إحضار الغداء الذي أصبح عشاء، لا يعيرها اهتمامًا، أحست ببوادر الخطر تقترب، جرجرت أذيال المحاولة الفاشلة لتنسحب من الغرفة بقدمين عسكريتين مهزومتين ثقيلتين، تعتكف في غرفة ابنهما الذي يقترب من اتمام عامه الخامس، تكومت بجانبه ريثما يتقدم إليها طالبًا منها الجلاء عن المنزل حتى تهدأ الزوابع أو أن يرد اللطمة بمثلها أو أشد منها.

كلما تقلب في فراشه وجد وجه أخته الملتاعة بعد أن هدها وهزمها قرار الطلاق، ووالدته وقد خنقها البكاء المر على مصير صغيرتها لتصبح مجرد امرأة مطلقة بعد عام أو يزيد من زواجها الذي لم يثمر غير صراخ وشكاوى من الطرفين ومجالس صلح، ليصبح هدوءهما أشبه بالتهدئة التي لا تصمد لمدة طويلة بين دول الجوار المتنازعة ليحدث خلالها التناوش والتراشق فالتشابك ثم الالتحام وتنهار في أعقاب ذلك كل اتفاقيات السلام، ثم تبدأ بعدها محاولات التهدئة من جديد وضبط النفس إلى أن يتقدم الكبار للتوسط بجولات من التفاهم التي تأتي في أعقابها دعوة طرفي النزاع لعقد مؤتمر سلام آخر يعلم كل المؤتمرين أنه إلى حين وسيعودون إلى ما بدأوه، وجه أمه الهادئة انقلب ثائرًا، دمويًا، عنيفًا:

ـــ اسمع يابني: أنت الآن كبيرنا بعد المرحوم، ما حدث إهانة لأختك ولك قبلنا، ابنتهم لابد أن تخرج طريدة من بيتك لبيت أهلها بجوار البطل أخوها، ليذوقوا مما ذقناه، ويعرفوا أن الله حق.

ـــ الله حق يا أمي بدون هذا أو ذاك، لكن لاتنسِ إن ابنتك هيّ التى طلبت الطلاق بإهانة واستفزاز.

لم تدعه أمه ليكمل حتى نزلت عليه بسياط الاتهامات بالرعونة، والميل عن الحق لصالح صديقه وحبيبة القلب أخته، مع اضافة وابل من الفلكلور الشعبي عن خيبة أملها فى رجلهم، والناس خيبتها السبت و... لتقف مرة واحدة متوثبة تجاهه فى إنذار عاصف:

ـ ورحمة أبوك، إن لم تبت بنت كوثر فى بيتهم هذه الليلة أو صباح الغد على الأكثر، لا تمشي فى جنازتى ولا تتقبل عزائي.

حاول أن يشرح لها ويطلب من أخته المساندة، لكنها قد أشارت لابنتها لينصرفا من أمامه إيذانًا بنهاية وخلاصة الكلام الذي لامعقب بعده، وعليه الانصراف والتنفيذ وإلا....

يغادر فراشه ويتجه فوراً إلى غرفة ابنه فيفتح الباب ليهلل الولد فرحًا بقدومه بينما هيَّ تثب من جواره تنظر إلي ذلك الرعب القادم بعينين متسائلتين وجلتين، لكنها من باب وقوع البلاء أفضل من انتظاره، قررت أن تنقذ بيتها وعائلتها الصغيرة في آخر محاولة منها لتتركه لضميره وقراره:

ـــ أنا لم أطلب منك الطلاق، وزواجنا سبقه خطوبة طيبة وحبٍ هاديء، لم أجرحك يومًا أو أجرح أهلك، لم أتعالى عليك أو أتدلل بسماجة، لم أتعاطى حبوب منع الحمل من خلف ظهرك لكي لا أنجب منك.

وكأنها تسرد عليه خطايا أخته دونما تصريح وقبل أن تكمل فر من أمامها ليعود أدراجه، ويجلس على كرسي أمام المرآة، ينظر إلى وجهه جيدًا، يخاطبه:

ـــ لن أجد مثلها، وأمي تنسى أنها حاضنة ولها البيت والولد وأنا من سأغادر لأجلس بجانب ابنتها بنت زينب أمي بينما بنت كوثر ستخسرني وسأخسرها، لتصبح الخيبة خيبتان في عائلتنا.

يتذكر قرار أمه ووجه أخته يستصرخانه: أنت رجلنا.

ليصرخ بصوتٍ يكاد يكون مسموعًا: وزوجتى وابنى من سيكون رجلهما؟! ليس هذا عدل الله.

وبينما هو هكذا، تدخل عليه زوجته وابنه وحقيبتهما، والولد يسأله:

ـــ ألن تأتي معنا عند بيت جدي يا أبي؟

لم يكد ينطق بالنفي، حتى وافته مكالمة من والدته تسأله ماذا فعل؟

فيجيبها: عدل الله يا أمي، فعلت بما حكم الله.

تفهم أمه أنه نزل على أمرها فطلق زوجته فتتنهد:

ـــ أحسنت يابنى.

وتفهم زوجته أنه أنزل بها قصاصه العادل من وجهة نظره العين بالعين رغم أنها كانت له نعم العين القريرة، ولا تدري لماذا دومًا في شرقنا يدفع المجني عليه فاتورة وحساب الجانى؟!

ينظر إليها طويلاً بحنان ثم يأمرها بأن تعد له حقيبته أيضًا، تستحلفه بالبقاء وأنها هي التى ستخرج ومعها صغيرهما، يستحلفها بالله أن تبقى هي ويبقى هو ويبقى ابنهما وحبهما.

ـــ أما الحقائب فللسفر إلى حيث لانعرف أحد ولا يعرفنا أحد، أجازة قصيرة ثم نعود لعشنا مرة أخرى.

مرسي عدلي السيسي رمضان

نادر آخر أبنائي ممن عايشوا ثورات الربيع العربي، طالب في المرحلة الإعدادية، الوحيد الذي نشأ في بيتي معارضًا، والذي يشتاق لسماع برنامج باسم يوسف ويتابعه بشغف، وينتظره بشوق، ومعجب بحركة تمرد، أجمل الميادين التي يحب أن يراها ميادين الثوار وخاصةً ميدان التحرير، ولذا فليس هناك ألذ عنده من سماع كلمة "ارحل".

سأنقل لكم الحوار الأخير الذي دار بيني وبينه بالفصحى، رغم جماله وسخونته بالعامية، ناوشته ذات ليلة ونحن نشاهد التليفزيون المقسمة شاشته بعدد ميادين مصر، وذلك بعد عزل الرئيس مرسي، وتولية المستشار عدلي رئيسًا بعده:

ـ ما اسم رئيس مصر الحالي يا نادر؟

ـ مرسي عدلي السيسي.

أصابتني الدهشة من رد فعله السريع والمفاجيء لتوقعاتي، فبدلاً من أن أحاصره حاصرني:

ـ وكيف هذا، المفروض رئيس واحد فقط؟!

ـ مرسي هو الرئيس المعزول، وعدلي هو الرئيس المؤقت، والسيسي هو الرئيس الفعلي.

ـ الفريق السيسي وزير دفاع فقط، وليس رئيسًا.

ـ لولا أن الفريق السيسي عزل مرسي ما كان جاء عدلي، والمظاهرات المؤيدة لمرسي تطالب من بعودة مرسي؟ ها، أجبني أبي تطالب من؟

ـ تطالب السيسي.

ـ إذن فالسيسي هو الرئيس الفعلي كما قلت لحضرتك ، ولا أدري لماذا الإصرار على عودة مرسي؟

ـــ أنا كنت متعاطفًا معه، وشرعيته، ولكن بعد هذه المعارضة، وعزله فيما يشبه إنقلابًا عليه، تجعل أمر عودته مستحيلاً إلى حدٍ ما.

ـــ لا ليس انقلابًا ، فالسيسي لم يتولى مكانه الرئاسة ، السيسي نفذ مطالب الشعب.

اعتدلت في جلستي محاولاً التأثير عليه:

ـــ كان يجب على الفريق السيسي أن يعطي الرجل فرصة كافية ، يمهله، جيلنا تحمل الرئيس مبارك سنوات.

ـــ (مقاطعًا) جيلكم صبور، ما شأننا؟ عام مضى من فشل إلى فشل أكثر وأكبر.

ـــ (بتحسر) كان بودنا أن ينجح فقد كان ممثلاً للتيار الإسلامي.

يفاجئني الولد أكثر باستنكاره الشديد، واصراره العنيد:

ـــ مال مرسي وجماعته ومال الإسلام، أنت وماما تحزنان على مصيره، وتعتقدان أن هذا هزيمة للإسلام، ونصر للعلمانيين والمسيحيين، وهذا خطأ، لأن الإسلام قبل الإخوان وبعدهم، والمسيحيون والعلمانيون ليسوا أكثر منا، والعلماني فيه مسلم ومسيحي، يعني هذه خسارة جماعة، وليس الإسلام، وكان عليه أن يخرج ويعتذر للمتظاهرين، ويعلن تركه لهذا المنصب حقنًا لدماء الشباب الذين يموتون، أليس له أولاد؟ أأولاده أهم من أولاد الناس؟

زمجرت وأرعدت وأزبدت في محاولة يائسة لكي يبدي بعض العطف تجاه الرئيس المعزول:

ـــ هذا الكلام الذي تسمعه من المعارضين للتيار الإسلامي ، والذين يحتلون التليفزيون، ويملأون الشاشات ليل نهار حتى ردد الناس كلامهم كالببغاوات.

ـــ أبدًا، فـأنا لا أسمعهم، بل هذا من مناقشاتي أنا وأصدقائي على فكرة.

لم يكن أمامي غير القرارات القمعية كما تعودنا من آباءنا ورؤسائنا:

ـــ هيا إلى النوم مبكرًا لكي تستيقظ على السحور.

ـــ ما هذا، أرمضان أتى؟!

ـ نعم، يا فالح أتى، وغدًا أول أيامه.

ـــ لا، ليس هذا عدلاً، لقد جاء بسرعة، ولم أكن أعلم.

ـــ قلنا لك وأنت نسيت، وإذا لم يعجبك يا حبيبي إعمل حركة تمرد ضده ، واجمع أنت وشلتك استمارات تطالب برحيل "رمضان".

ـــ (متهكمًا) أو نعمل مظاهرات ونطالب بعودة "شعبان" المعزول، تضامنًا مع الشرعية.

ـــ رمضان ليس مرسي أو مبارك ، رمضان قادم قادم ، وليس لك إلا الاستسلام والانسحاب من الميدان، وتمضي إلى سريرك.

ـــ (متذمرًا) ما هذا؟ مرسي وعدلي والسيسي ورمضان في يوم واحد.

ومضيتُ إلى سريري أجرجر أذيال الفشل في هذا الحوار، متمتمًا:

ـــ حقًا يا بني ليس هذا عدلاً.



السيد إبراهيم أحمد

ـــ السيد إبراهيم أحمد.

ـــ حاصل على بكالوريوس التجارة، ودبلوم الدراسات العليا فى المحاسبة المالية، جامعة عين شمس بجمهورية مصر العربية، وكذا دبلوم الدراسات العليا بالمعهد العالى للدراسات الاسلامية بالقاهرة، وحالياً بماجستير الإقتصاد الإسلامى.

ـــ صحفى بجريدة البيان العربى، وجريدة فرسان السويس، وجريدة حديث البلد.

ـــ صدر له كتاب المعجزة المحمدية، وكتاب : "محمد صلى الله عليه وسلم، كما لم تعرفوه" عن دار دوِّن للنشر بالاشتراك مع دار الكتب والتوثيق بالقاهرة،و موسوعة: "سياحة الوجدان فى رحاب القرآن"، وكتاب : "نساء في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم "، وكتاب : "سيظل رسول الله صلى الله عليه وسلم، مهما أساءوا"، وكتاب :"حبًا في أمي عائشة". وله مجموعة قصصية : "طقوس للعودة"، وديوان للأطفال: "نادر يبحث عن السعادة"، وكذلك ديوان بالعامية المصرية، وغيرهم.

ـــ عضو إتحاد الكتاب والمثقفين العرب.

ـــ حصل على شهادة تقدير من إتحاد الكتاب والمثقفين العرب، ولُقِبَ بـ "حَبر الإتحاد".

ـــ حصل على شهادة تكريم وتقدير من موقع "المختار الإسلامى".

ـــ شارك فى التحكيم فى المسابقات الأدبية بالمملكة المغربية.

ـــ صدر له ديوان على موقع أبيات الشعر والشعراء.

ـــ فاز في مسابقة قصص على الهواء بإذاعة BBC بالاشتراك مع مجلة العربى عن مايو 2010، عن قصته : (القطار).

ـــ له عدداً من الدراسات النقدية والمقالات السياسية وغيرها.

ـــ يقرض الشعر وقد تغنى بقصائده وأغنياته الدينية الكثير من المبتهلين بالقنوات الفضائية الإسلامية، مثل : قناة الناس، فرقة إنشاد الناس، البركة، الأمة، البدر، الصحة والجمال، الحافظ، القناة الرابعة، النيل الثقافية المصرية ، كما بثتها بعض الإذاعات، و كذلك قدمتها دار الأوبرا المصرية.

ـــ أعد وقدم عددًا من البرامج الدينية لبعض القنوات، مثل : واحة المستغفرين، لقاء الإيمان، مع أسماء الله فهمٌ وذكر، وسهرات رمضانية، غير كليب عن مناسك الحج، وكليب فى الدفاع عن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، وشريط ديني للأطفال.

ـ تنشر أعماله: [رابطة أدباء الشام، مكتبة صيد الفوائد، مجلة الرباط الأدبى التى تصدرها رابطة الأدب الإسلامي العالمية، شبكة الألوكة، دار ناشرى للنشر الالكترونى،المستقبل، دنيا الرأى، مجلة الجيل، الأهرام، الفجر نيوز، الواقع، الدلتا، مجلة الفكر الحر، صحيفة الشرق القطرية، المختار الإسلامي، مقالاتي مكتوب، شبكة أعلام القدس، ألوان عربية، مجلة رؤى مصرية].

ـــ للاتصال بالكاتب :

ـــ elsayedebrahim1@hotmail.com
ـــ elsayedebrahim22@gmail.com
ـــ elsayedebrahim22@yahoo.com
ـــ الهاتف : 00201000702282
ـــ الموقع :
http://kenanaonline.com/elsayedebrahim
ـــ المدونة:
http://elsayedebrahim22gmail.blogspot.com

ـــ الفيس بوك :

http://www.facebook.com/profile.php?id=100000789262267

ـــ تويتر:

https://twitter.com/_239498491495